بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

عندما بدأتُ أكتبُ عن أحداث حرب الخليج الثالثة ـ كما يسميها دول التحالف ـ أو معركة الحواسم ـ مثلما سماها الرئيس العراقي الراحل «صدام حسين» ـ أجد حرجاً في اختيار نقطة البداية، ويزداد الحرج أكثر كلما توغلت مبحراً بين الأسباب والنتائج وما صاحبها من أحداث جسام غداة سقوط بغداد أمام قوات المارينز الأمريكية يوم التاسع من نيسان (أبريل) عام 2003 م، ومن هنا تنتابني الحيرة في الحديث عما جرى للشعب العراقي المظلوم من الصدمة المروعة وحجم الدمار والخراب الذي حل بكل مكان من البلاد، إلى جانب السلب والنهب الذي ساهم بتدمير ما بقي من نيران القنابل المحرقة، وعن مستقبل هذا الشعب وما يتطلبه من جهد مضني لإخراجه من محنة الدمار الذي لحق به خوفاً من وقوع كارثة قد تكون أعظم مما أحدثتهُ قنابل قوات التحالف وسطو اللصوص..

وللأسف أن تلك الكارثة التي كنا نخشاها قد حصلت بالفعل، فالسماء المرتفعة التي اعتقدنا أنه من المستحيل أن تهوى إلى الأرض قد أوشكت أن تنطبق على الأرض وهي قريبة جداً.

كان في ذهني أن أروي ما شاهدتُ وسمعتُ عن كل ما جرى في تلك الأيام الصعبة التي مر بها العراقيون، ولكن الموضوع ما لبث أن تحول بين يديَّ من عمل موضوعي إلى فكر وتصور، ومع كل ما عشته من أحداث أحاول اليوم أن أجمع فيها شهادة الرؤية وشهادة

obeikandl.com

الحواس وشهادة الإنسانية الصادقة لكل العالم الذي يجهل الكثير عما جرى ويجري اليوم في العراق.

إن طبيعة الموضوع فرض عليَّ هذا الأسلوب وذلك المنهج لتقصي الحقائق وكشف الأسرار، وتفتح أمام ناظري في خضم تلك المحنة القاسية عالم رهيب.. تيه مجهول، جديد بكل ما يحمله من ألم.

وكان فضول المعرفة والرغبة في الكشف عن هذا التيه والتعرف عليه والمسؤولية التاريخية والإنسانية دفعتني بقوة إلى تدوين كل الحقائق بما تضمهُ من أحداث مأساوية مؤلمة لم يكن يكفي فيها أن أكتب باللمحة العابرة التي تمنحها لي مهنتي ككاتب، فذلك من الوجهة الإنسانية يعد تقصيراً لا يليق بجوهر الموضوع الذي أتناوله.

الكثيرون تواقون إلى معرفة ما حصل في العراق وما يحصل اليوم طوال الوقت من أحداث، وأنا أشعر أن القارئ أكثر رغبةً وشوقاً لمعرفة طبيعة وحجم الكارثة الحقيقية التي ألمت بالشعب العراقي.

ولهذا فضلت أن يكون كتابي هذا دعوة إلى معرفة حقيقة ما حصل في العراق بكل ساعات المواجهة وكيف تخلى عن بغداد كبار الجنرالات؟ حيث آثر البعض الهرب والفرار، وآخرين التخاذل والاستسلام، فضلاً عما يحصل اليوم من مآسٍ دموية إرهابية تفوق تصورات العقل البشري كانت أهم من نتائج الغزو الأمريكي بسقوط جنرالات الحرب والسياسة.

وعبر هذا المشوار فإن الدعوة إلى معرفة ما يجري على أرض الرافدين لهي دعوة مناجاة للرب كي لا تسقط السماء في بغداد أكثر منه دعوة إلى متعة القراءة فقط.

قد يتساءل البعض.. مَنْ المسؤول عن هذه الفوضى والكارثة التي ألمَّت بنا؟!!.

والحقيقة لا يمكن التغاضي عن أي طرف مهما كانت حصانته وقدرة ما يملكه من مدافع الرشاش ورجال المليشيات التي تحيط به، فالمسؤولية تقع على أطراف عديدة بدءًا بالذين سمحوا بحصول هذه الكارثة ومهدوا لها من خلال إعطاء الفرصة الذهبية للغرباء أن يتسللوا تحت جنح الظلام إلى أرض السلام.

كما تقع المسؤولية أيضاً على من سكتوا وارتضوا ورضخوا للأمر الواقع، والذين أداروا بوجوههم عما يحدث، وغيرهم ممن فضلوا الهرب والاختباء ولجمهم الخوف، قد أسهموا جميعاً بحلول الكارثة، وأمام مسؤولية بناء العراق من جديد اليوم وغداً يتحمل الجميع بلا استثناء مهمة العطاء ونكران الذات والتخلي عن المكتسبات الآنية، وللأسف لم نشهد ذلك النبل، فبدلاً من المساهمة الفعلية في إعمار الوطن، حمل هؤلاء معاول الهدم وراحوا يحطمون كل شيء في هذا الوطن الجريح، وتحول تفاؤل الشعب إلى وهم كبير بعد أن امتلأت البلاد بوحوش كاسرة قلوبهم من حجر، لم يخففوا من وقع الكارثة على أهلنا وأحبتنا ولملمة جراحنا لنبدأ عصراً جديداً، حتى ولو سماها الغرباء بالديمقراطية فلا ضير في ذلك وهي فكرة مقبولة من الممكن أن تتيح فرصة رائعة للحياة بدلاً من الموت الذي انتشر في كل أركان الوطن، وللأسف بدا هناك من لم يفهم المعنى الحقيقي للديمقراطية والحرية لأنهم جعلوها سلماً للقتل والنهب والسلب والاغتصاب وتفخيخ السيارات والعبوات الناسفة التي مزقت أجساد العراقيين إلى أشلاء مبعثرة..

كنا نأمل أن نبدأ من جديد... نبني وطناً خالياً من الخضوع والظلم والتمايز الطبقي والعنصري والفئوي كما فعل من قبلنا الشعب الألماني عندما عرضهم «هتلر» لنفس ما ذقنا من كأس المرارة والخراب والدمار والجوع والتشريد جراء الحروب الدموية.

وأشعر بالحرج عندما أصوغ هذه المقارنة مع الشعب الألماني رغم ما نملكه من رصيد حضاري، إلا أنه في النتيجة لم نستطع أن نرتقي ولو خطوة واحدة لِما وصل إليه الألمان، ورغم كثرة الأزمات والحروب التي مررنا بها مرغمين إلا أننا شعب نكره رائحة الدماء والجثث المحترقة التي أراد أن يعودنا عليها قادتنا منذ زمن طويل جداً، فدعونا لا نغالط وقائع التاريخ لأن التاريخ شاهد حي، والوقائع قد أثبتت هذه الحقيقة، فمنذ أن ارتقى كلكامش ونبوخذ نصر وآشور وناصربال وغيرهم من عشاق الدم وقطع الرؤوس والأطراف والألسن الحكم في العراق وقادتنا المعاصرون يتفاخرون بتاريخ أسلافهم القدماء، المليء بصفحات العنف والقتل.. إنها لعنة القيادة منذ زمن طويل، عبّرت عن واقعها المؤلم برضوخ شعب الرافدين، وأنا متأكد أن هذا الأمر لا يشكل صدمة للعراقيين

لأنهم يدركون جيداً تلك الحقيقة التي طالما أنكرناها فيما مضى وعشنا معها بحيرة وأذهلتنا وأذهلت معنا العالم كله.

دعونا نقلب صفحات التاريخ لنرى ما زيفه حكامنا حتى بلغوا بأكاذيبهم سماء المجد وحانت اليوم ساعة سقوطه ولا ندري متى يهشم رؤوسنا جميعاً. ولنر حجم الكارثة الحقيقية التي ألمَّت بنا ونحن ننظر لبعضنا البعض باستغراب وكأننا غرباء عن هذا الوطن لا تجمعنا آصرة المواطنة والأخوة، ولا أقصد رابطة الدين فالكثيرون اليوم هم بلا دين، بل أقصد الرابطة الإنسانية التي جمعتنا في وطن واحد اسمه العراق وهو قدرنا.. ولننظر إلى باقي الشعوب، ولنسأل أنفسنا.. لماذا حل بنا هذا الدمار؟!

لماذا نحن فقراء في أرض ملأها الله بالخيرات والنعم؟

لماذا نهاجر؟ لماذا نتمنى الحياة الهانئة؟

لماذا لا نستطيع أن نحب بعضنا البعض؟

هناك الكثير من الأسئلة التي يجب أن نجد لها الأجوبة المناسبة بصدق بلا خوف أو رياء.

فإذا كانت العلة فينا فهذا يعني أن أرض العراق مصابة باللعنة منذ سنين طويلة.

وإذا قلنا العلة في غيرنا ممن يطمعون في خيراتنا فهذا يعني أننا لا نستحق تلك الخيرات لأننا عاجزون عن استغلالها وحمايتها من الغرباء.

وإذا قلنا العيب في قادتنا ورغم أنه بلاء عظيم إلا أن الأعظم هو ضعفنا وارتضاؤنا بالظلم والمهانة.

فالإنسان إما أن يعيش بكرامة أو يموت بكرامة فليس هناك ساحة يمكن لها أن تفصل ما بين الحياة والموت إلا الشرف والعزة.

وإذا ركنَّا إلى القول بأن الخلل الفعلي فينا فهذا يعني كارثة قد لا نجد لها حلاً.

لأن الإنسان إذا فقد التوازن الإنساني فهذا يعطي انطباعاً بأنه ميت، والميت لا يمكن أن يثور ويناضل، وللأسف فشعبنا رغم بقائه حياً منذ آلاف السنين إلا أنه وقف عاجزاً أمام الطغاة كالمومياء.

وقف عاجزاً أن يقول لكلكامش كفى ظلماً وطغياناً أو أن يردع غرور نبوخذ نصر أو عنجهية آشور وناصربال، أو أن يعترض على القوانين القاسية لمسلة الحكام الذين تتابعوا على إخضاعه بقوة الحديد والنار.

وقد يتساءل البعض.. ألسنا نحاكم اليوم «صدام حسين» وأعوانه؟!!

أجل وضع في قفص الاتهام وحُكم عليه بالإعدام شنقاً على الرغم ما صاحب ذلك الأمر من مغالطات وتجاوزات ولا زالت المحاكمة جارية لبقية أعوانه.

ولكن ما السر وراء تمكن هذا الشعب من أن يظهر مخالبه بهذا الشكل!!

دعونا نكتب للتاريخ بعض الحقائق ونحمد الله أنها ليست في متناول السلاطين والحكام وأذنابهم الذين رضخنا لقوانينهم التسلطية زمناً طويلاً عشناه بذل وانكسار.

مَنْ أسقط صدام؟!!

إنه سؤال قد نجد فيه حرجاً ولكن يجب أن نجيب عليه أمانةً للتاريخ.. إنها أمريكا، فلو اجتمع الإنس والجن لما تمكنوا من إسقاط حكم صدام حسين، دعونا لا نأسف كثيراً على سقوط فرد واحد من شعبنا حتى وإن كان رمزاً أو قائداً أو حاكماً، دعونا لا نرمي تبعات أخطائنا على شخص واحد هوى بغفلة من أمره.

ولكن دعونا نأسف كثيراً خشية إمكانية سقوط الشعب بأكمله.

هذا الشعب الذي لا زال صامتاً غير قادر على الانتفاضة الحقيقية لأنه مكبل بقيود الماضي.

وقراره لا زال غامضاً.. ولكننا ندرك جيداً أنه مع حب الوطن، وطالما أنه مع حب هذا الوطن فإنه سينتفض من أجل مستقبل أفضل للأجيال القادمة رغم ما فقدناه جراء وقوفنا في مكان واحد... ورغم الصمت اللعين الذي شجع الطغاة بالأمس وشجع اللصوص والقتلة ورجال المفخخات على قتل أبنائنا اليوم... فصدام حسين رحل من حياتنا مثلما رحل قبله عشرات بل مئات الحكام عبر تاريخنا الطويل.. أما حانَ الوقت أن نعيش ونتنفس هواء الحرية لنتمكن من أن نملأ ذلك الحيز الكبير الذي شغله المجرمون لنخرج من مستنقع الضياع قبل أن تتغرس أقدامنا في الوحل أكثر وأكثر وقبل أن ينهكنا التعب فنخسر كل شيء؟!.